مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 76 إلى 88
العنوان: الهوية وسؤال الاختلاف في الفكر العربي المعاصر

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

الهوية وسؤال الاختلاف في الفكر العربي المعاصر.

حمي نورالدين مطالسي[1]
جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر
noureddine.metalsi@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2026/03/07 ؛ تاريخ القبول:2026/05/22

Identity and the question of difference in contemporary Arab thought

Metalsi Hammi Noureddine.

Abstract:

This article examines the problem of identity and the question of difference in contemporary Arab thought — one of the central themes in philosophical and cultural discourse from the Renaissance to the present. The concept of identity, undoubtedly, crystallized through contact with Western modernity, especially its negative dimensions — such as colonialism in Arab and Islamic societies — and through the political and social transformations that demanded a re-examination of identity and its cultural and civilizational boundaries. Our focus lies in the dialectic of identity and difference, since identity is shaped only in relation to the Other — the different — and through engagement with them. Thus, identity is no longer seen as a fixed essence, but as a site of critique, reflection, and reconstruction. In turn, difference has shifted from being perceived as a threat to being recognized as a cultural and intellectual value — one that enriches pluralism, strengthens diversity, and supports coexistence within the human community.

Keywords: Identity; Difference; Modernity ; The self and the other ; Dialogue.

الملخص:

لقد حاولنا من خلال هذا المقال الوقوف على إشكالية الهوية وسؤال الاختلاف في الفكر العربي المعاصر، بوصفها أحد الأسئلة الأكثر حضورا في الخطاب الفلسفي والثقافي منذ عصر النهضة إلى اليوم. ولا شك أنّ

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

مفهوم الهوية قد تبلور في سياق الاحتكاك بالحداثة الغربية خصوصا في شقّها السلبي الذي تمثل في التجربة الاستعمارية على المجتمعات العربية الإسلامية، وكذا التغيرات والتحولات السياسية والاجتماعية التي فرضت إعادة النظر في سؤال الهوية وحدود انتمائها الثقافي والحضاري. وقد كان تركيزنا في هذا المقال على جدلية الهوية والاختلاف، باعتبار أنّ الهوية لا تتحدد إلّا بوجود الآخر المختلف والتفاعل معه. هكذا لم يعد التعاطي مع مفهوم الهوية بوصفها معطى ثابت، بقدر ما أصبح موضوعا للنقد والمراجعة وإعادة البناء. من هنا انتقال مفهوم الاختلاف بوصفه مصدر تهديد إلى كونه قيمة ثقافية وفكرية تسهم في إثراء وترسيخ التعددية والتنوع، وإرساء قيم العيش المشترك بين أفراد الجماعة الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الاختلاف؛ الحداثة؛ الأنا والآخر ؛ الحوار.

مقدمة:

تعد إشكالية الهوية والاختلاف من بين أكثر الإشكاليات حضورا في الفكر العربي المعاصر. ولا مجال للشك في أنّ هذه الإشكالية معقدة وعميقة، باعتبار أنّها تتعلق بالسؤال المحوري من نحن؟ أومن نكون؟ وهو السؤال الذي يقتضي أجوبة تحمل في مضمونها ما يُحيل إلى حضور (الأنا) في مقابل (الآخر) المختلف. هكذا أصبح مفهوم الاختلاف من المفاهيم ذات الأثر البالغ على المجتمع الإنساني عامة، وعلى المجتمع العربي خاصة، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بإشكالية الهوية وما تحمله من أسئلة عميقة وجوهرية تدعو وبإلحاح شديد إلى إجابات تخفّف على الأقل من قلق الإنسان العربي اتجاه ما يحدث في العالم، وتجعله يشعر بكينونته، ويعي فعلا فكرة أنّه يتقاسم العالم مع الآخر باختلافاته العرقية والدينية والثقافية واللغوية. إنّ التعاطي مع مفهوم الاختلاف بما يُحيل إلى الإيجابي والمشاركة في صناعة الحدث بما يتلاءم مع مستجدات العصر، فذلك ما يجب أن يكون ولا شك، ضمن فضاء يتحدّد من خلاله ما يُعطي للهوية معنى حيويا وخلّاقا، بعيدا عن الانغلاق والجمود الذي لا يُنتج إلّا العزلة والتخلف لأمة من الأمم.

هكذا تتشكل تلك العلاقة بين الهوية والاختلاف، بما يسمح للجماعة الإنسانية الاستمرار والعيش معا رغم التعدد والتنوع الذي يحكمها، باعتباره القانون الذي يسيّر الحياة الإنسانية عامة. إنّ الاختلاف والتنوع والتعدد، كلّها لا يجب أن تكون حاجزا وحائلا أمام العيش المشترك، الذي يحتكم في أساسه لقيم التسامح والاعتراف بما يضمن للآخر المختلف وجوده الفعلي وحقّه في الحضور كطرف أساسي ضمن المعادلة الوجودية، بعيدا عن الإقصاء الذي لا يحيل إلا إلى نبذ الآخر وإلغائه وبالتالي عدم الاعتراف به كذات فاعلة تُسهم في إثراء مقومات الحياة. من هنا جاءت إشكاليتنا كالآتي: هل يمكن القول بحقيقة الهوية بعيدا عن الاختلاف؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار الاختلاف شرطا أساسيا لتحقيق الهوية؟ وما الذي يجب أن نكون عليه

حمي نور الدين مطالسي
noureddine.metalsi@univ-mascara.dz

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

كعرب ومسلمين اتجاه الآخر باختلافاته العرقية والدينية والثقافية؟ ولمعالجة هذه الإشكالية، فقد اعتمدنا في مقالنا هذا على ثلاث مطالب جاءت كالآتي: المطلب الأول بعنوان: الهوية المغلقة ومنطق الإقصاء أمّا المطلب الثاني، فجاء موسوما بالحداثة الغربية وثنائية التحرر والسيطرة، فيما جاء المطلب الثالث بعنوان: الهوية والانفتاح على الآخر.

الهوية المغلقة ومنطق الإقصاء:

لا بد من الإشارة في بداية هذا المطلب، أنّ منطوق الهوية المُغلقة، يُحيل في متنه إلى منتهى الإيمان ب:(الأنا) المتشبعة بمعتقداتها ومقوماتها التي تجعلها لا تُصغي للآخر ولا تعترف به كفاعل يقاسمها الوجود والعالم. ليغدو بذلك الانغلاق الذي آلت إليه بمثابة النتيجة الحتمية لمعتقداتها وأفكارها الدوغمائية، حيث الأحادية المُفرطة في التفكير، والإيمان بامتلاك الحقيقة المطلقة والقطعية، وعدم الإصغاء إلى الآخر وتغليطه مسبقا. وذلك هو حال "الفكرة عندما تُصبح هوية للفرد أو الجماعة، فإنّها تغدو حاجزا يتمترس وراءه صاحبها أو المؤمن بها، الأمر الذي يجعله يتعلق بها على نحو أصولي، أو شمولي، أو عنصري فاشي". (حرب، الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي، 1998، صفحة 83).

إنّ الهوية المغلقة التي لا تعرف الانفتاح، تغدو هوية صمّاء لا تُتقن فن الإصغاء الذي يجعل الحوار ممكنا، كما أنّها تفتقد وهذا هو الأخطر إلى قيمة الاعتراف بالآخر المختلف كطرف أساسي في المعادلة الوجودية كما أسلفنا القول. ولهذا تجدها تسبح في فلكها الخاص الذي سيّجته بأفكار وقيم تُختزل في التطابق والتشابه، وبالتالي انتقاء واصطفاء ما يتناسب معها وما يخدم توجهاتها ومعتقداتها. وبهذا الشكل "يكون التعاطي مع الهوية على نحو ما ورائي بوصفها تطابقا بين شخص وآخر، أو بين المرء ونفسه، من غير ما اختلاف أو انشطار. ومثل هذه الرؤية للهوية تُنتج الجمود وتُعيق النمو بقدر ما تولد الاستبداد أو الإقصاء والاستبعاد". (حرب، حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، 2004، صفحة 23). ولا شك أنّ أسباب التعاطي مع الهوية بهكذا شكل في المجتمعات العربية تتعدد بتعدد الظروف والجماعات التي تتعامل مع ما تمتلكه من قيم، باعتبارها المطلق والقطعي الذي لا يقبل أي نقاش، وكأنّها مقولات قبلية ثابتة لا تقبل التجديد ولا مناقشة ما يحدث من تغييرات كونية تطال كل قطر من أقطار العالم. ولا بد من الإشارة هنا، أنّ المشكل لا يتعلق بالقيم في حد ذاتها سواء أكانت قيما ثقافية أو دينية أو أخلاقية، بقدر ما نجده في كيفية التعاطي معها وفهمها على نحو أصوب. إنّ الهوية المغلقة أو الصمّاء، تجد في الابتعاد عن الآخر، وصدّه وإقصاءه انتصارا وإنجازا، يُحققه أقطابها ودعاتها كرد فعل على ما لا يتناسب مع فهمهم ومعتقداتهم. فالمنطلق لديهم في بناء علاقاتهم مع الآخر، هو منطق الفكر الأحادي الذي يؤمنون به، مضادين بذلك طبيعة الحياة التي تتأسس على التنوع والتعدد

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

والاختلاف. "إنّ المنغلق على ذاته ومعتقده ينفي الآخر ولا يعترف له بحقه في أن يكون مختلفا عنه، إذ يكون الاختلاف في نظره هو نقيض الهوية وضدّها الذي يتهدّدها ويعمل على استتباعها أو تسخيرها أو تصفيتها". (حرب، نقد الحقيقة، 2000، صفحة 81).

وقد يكون الدافع – وهذا من بين الأسباب الرئيسية- لتبني مثل هذا الطرح للهوية، هو الحفاظ على الأصل، والدفاع عن ثوابت الأمة العربية الإسلامية من الأخطار التي تتهدّدها، وهو الأمر الذي يمكن اعتباره شرعيا إلى حد ما، ويقع في خانة ما يجب أن نكون عليه كعرب ومسلمين اتجاه الآخر الغربي. فيغدو بذلك السبب خوفا من الآخر الغربي الذي ينتمي لثقافة مغايرة، ويُدين بدين مغاير، كما يتكلم بلغة مختلفة، ويُؤمن بقيم لا تنتمي في أغلبها لمنظومة القيم العربية الإسلامية. "فحتى عندما نعبّر عن حاجتنا إلى التحديث مثلا والانخراط في الحداثة، فإنّ ذلك يقترن عندنا عادة بتعاظم هواجس الخوف من ضياع هويتنا كثمن يجب بذله مقابل هذا التحديث نفسه. ذلك أنّ الاعتقاد راسخ بأننا ورثنا من الماضي وعن السلف تراثا غنيا متجانسا، قادرا على أن يُوقع بختمه على شخصيتنا وذاتنا مرة واحدة وإلى الأبد". (الدواي، 2004، صفحة 34)

فطبيعي أن تكون هناك ردة فعل تلي هذا الخوف والقلق الذي ينتاب الذات العربية جرّاء النظرة الدونية للآخر الذي يتعامل معها كموضوع، كما يتعامل معها كذات بحاجة إلى التحضر والتمدن، وفي ذلك قمّة الإخفاق القيمي الذي وسم الكثير من المشاريع الغربية التي ناقضت نفسها وباطنت الكثير ممّا يتناقض مع حقوق الإنسان وكرامته. ويمكن أن نطرح في هذا المجال مشروع الحداثة، كمثال اندغمت فيه كل المتناقضات التي أبانت بحق عن الوجه الخفي الذي كان يُضمره الآخر في مشروعه اتجاه الآخر المختلف عنه، والذي كان يرى فيه كائنا همجيا، فاقدا للتحضر والتمدن.

الحداثة الغربية وثنائية التحرروالهيمنة.

إنّ مشروع الحداثة قد عنى في مضمونه بالثورة على القديم، حيث لا وجود للماضي باعتباره مقوّما وأساسا للحضارة أو التقدم. "فعصر الحداثة يحيا بدلالة المستقبل، وينفتح على الجديد الآتي، وبالتالي لم يعد يستمد قيمته ومعياريته من عصور ماضية، بل يستمد معياريته من ذاته، وذلك عبر تحقيق قطيعة جذرية مع التراث والتقليد"، (سبيلا، 2000، صفحة 12)، وتحرير الإنسان من القصور والتبعية التي كانت مفروضة عليه، مؤكدا في ذلك على قيم الحرية والعقل، وعلى مبدأ الذاتية الذي أعاد للذات مكانتها ومركزيتها، بعيدا عن الوصاية التي كانت مفروضة عليها. هكذا بشّر المشروع الحداثي بميلاد الإنسان الفاعل المتحرر من كل وصاية أو تبعية، رافضا بذلك سلطة السماء التي كبّلته فترة القرون الوسطى. إنسان ركّز في تفكيره على أولوية

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

العملي، حيث أضحى بإمكانه أن يصنع مصيره لوحده، وأن يحقق سعادته (هنا والآن)، مستقلا بذلك عن وصاية الكنيسة ووعودها المضلّلة. وطبيعي أن تؤدي كل هذه المعطيات (الحرية، العقلانية، الذاتية وأولوية العملي) إلى القول بأنّ الحداثة هي "النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر كما يمكن القول بأنّها ممارسة السيادات الثلاث عن طريق العلم والتقنية: السيادة على الطبيعة والسيادة على المجتمع والسيادة على الذات". (طه، 2006، صفحة 23).

ولا بد من الاعتراف هنا أنّ الحداثة الغربية، قد حققت الكثير ممّا كان منتظرا منها، والمقصود هنا تلك النقلة النوعية والقطيعة مع الماضي التي كانت على جميع المستويات، المعرفة، الطبيعة، التاريخ، العلم والتقنية، وحتى على مستوى الإنسان، الذي بات يحوز قيمة أساسية ومركزية سواء على المستوى النظري أو العملي. وكل هذا كان بسبب انتصار العقل على كل الجبهات الذي تصدى لخرافة الكنيسة وأساطيرها، مُعيدا بذلك إحياء قيم الحرية والفكر، حيث الجرأة على التفكير والابتعاد عن القصور والتبعية. وذلك هو شعار مشروع عصر الأنوار، "الذي يُعد لحظة تأسيسية للحداثة الغربية تأسس على مبادئ العقل والحرية والعدالة واحترام كرامة الإنسان وحقوقه وعلى فكرة التقدم الإنساني". (بومنير، 2010، صفحة 14). لكن رغم ما تحقق في كنف المشروع الحداثي من انتصارات وإنجازات، وقد بدا ذلك جليا من خلال الإنجازات العلمية والتكنولوجية التي أسهمت وبشكل كبير في إعطاء معنى جديد لحياة الإنسان، كما أنّها أسهمت كذلك في تقديم الكثير من الحلول لمشاكل كانت تبدو جد معقدة وتُصنف في خانة المستحيل حلّه. فرغم كل الجوانب الإيجابية لهذا المشروع، والوجه المشرق الذي ظهر به، فقد كان هناك فشل ذريع في تحقيق ما كان منتظرا من الحداثة من الجانب القيمي والإنساني. "بل أكثر من ذلك، فإنّ التجربة الحداثية الغربية التي رفعت شعار المساواة والتآخي بين البشر، قد تحولت إلى تجربة استعمارية امبريالية ثم عولماتية... وعليه يمكن القول، بأنّ إيجابيات الحداثة الغربية وإنجازاتها، قد باطنت أشكالا من الهيمنة الثقافية والسيطرة والاستتباع السياسي للشعوب". (سبيلا، 2000، صفحة 52).

وعند هذه النقطة لا بد هنا من التذكير بالبداية المتوترة التي كانت للحداثة الغربية مع المجتمعات العربية الإسلامية، حيث غدت هذه المجتمعات موضوع استلاب واستدمار من قبل الآخر الغربي الذي ناقض مبادئه فيما يخص عالمية حقوق الإنسان وكونيتها. وهنا يمكننا الكلام عن فقدان هذه القيم والحقوق معناها وفعاليتها إذا ما تعلق الأمر بإنسان المجتمعات العربية، وكأنّها قيم لا تخصّه، فصلاحيتها مرهونة بتعلقها بالإنسان الغربي الأوربي الذي يقطن أوربا. أمّا خارج السياج الأوربي فهناك كلام آخر مع إنسان المجتمعات العربية الإسلامية. وإذا أردنا الوقوف على ما يُجسد ذلك واقعا ملموسا ومطبقا، أمكننا الكلام عن الحملة

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

التي شنّها نابليون على الشرق مقدّما نفسه منقذا وحاملا لقيم العدل والمساواة. هكذا "خاطب المصريين ليُخبرهم بقدومه من أجل إنقاذهم من حكم الممالك الظالم ومبشرا بالمساواة والعدل. وقد نقلت حملة نابليون معها إلى مصر الدعائم الثلاثة للحداثة الأوربية: القوة، المنافسة والمعرفة. وإذا شئنا التعبير عن هذه العناصر بما يعكس علاقتها مع المشروع النهضوي العربي قلنا بالتوسع الاستعماري، التنافس الأوربي الإنكليزي – الفرنسي، والفكر التحديثي". (الجابري، 2009، الصفحات 19-20).

إنّ العلاقة التي وسمت الحداثة الغربية بالمجتمعات العربية، كانت منذ بداياتها تقوم على التعالي والوصاية التي يفرضها الغرب على الإنسان العربي. وهي وصاية تنم عن اقتناع الغرب بامتلاكه لقيم الحضارة والتمدّن، وبالتالي اقتناعه بأهليته في تمدين المجتمعات العربية وتحضيرها عبر استعمارها، فهي في نظره قاصرة، وبحاجة إلى من يُرشدها ويأخذ بيدها نحو أنوار صورية لا علاقة لها بالواقع، سوى أنّها تبرير لما ناقض به نفسه. ولا شك أنّ فعل الاستعمار لم يكن فقط من خلال السلاح فقط، واستلاب الثروات المادية للبلدان العربية وذلك ما يمكن عدّه استعمارا مطبقا، وإنّما كان هناك استعمار مواز لذلك، يعمل بشتى الطرق على نسف القيم ومقومات الهوية العربية وطمسها، وبذل كل الجهود من أجل إحلال قيم تتنافى ومقومات الهوية العربية الإسلامية. والأدهى والأمر من كل هذا، أنّه وجد تبريراته لكل هذا في تمدينه لهذه الشعوب التي تعامل معها كآخر متوحش بحاجة إلى التحضر. "من هنا تلك المهمة التي أعطتها الحداثة الأوربية لنفسها، مهمة تمدين الشعوب المتوحشة ونشر الحضارة فيها". (الجابري، 2009، صفحة 23). هكذا سيجد الإنسان الغربي في الحداثة ملكا له، نسج خيوطه لوحده، وأبدع في تأليف فصوله لوحده كذلك، فقدرته على ذلك بدت واضحة وجلية، من خلال عمله المتقن في الثورة على القديم، وزحزحته للثابت المطلق الذي لم يعد يحتكم لتعاليمه، رافضا بذلك ما يُحيل في أساسه إلى الفوقي والمتعالي. إنّه مالك للحداثة، وبالتالي فهو مالك لأسرار الحضارة التي أصبح نقلها إلى الشعوب غير المتحضرة حتى ولو كان ذلك على حساب حرياتهم وكرامتهم، من مهمّته التي لا يتوانى في تأديتها. هكذا "غدا الغرب كآخر حديث/ moderne اخترع خطابا خاصا عن الأزمان الحديثة يزعم فيه أنّ الحداثة شأن غربي بحت وأنّ باقي الإنسانية مجتمعات غير حديثة ومن ثمة تقبع خارج قدر الإنسانية الأوربية الظافرة...فنحن في خطة الغرب (طبيعة) لا جزء من برنامج الإنسانوية الأساسية للحداثة". (المسكيني، 2001، صفحة 48).

كل ما تم ذكره إذن، يجعلنا على بيّنة من أنّ التاريخ – خصوصا في شقّه المتعلق بالاستعمار أو الاستدمار الغربي للبلدان العربية الإسلامية باعتباره الوجه الخفي والمبطن للحداثة الغربية، كان محملا بكل ما يمكنه إعاقة نمو وسيرورة المشاريع العربية، والوقوف في وجه أية محاولة لإحراز أي تقدم ولو كان طفيفا. "من هنا

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

يمكننا الوقوف على الدور التخريبي الذي قام به مشروع الحداثة الأوربية في تاريخ النهضة العربية الحديثة من خلال بعديه اللذين يحكمان وجهه الآخر (التوسع الاستعماري والتنافس الأوربي". (الجابري، 2009، صفحة 20).

وبعد كل هذه المعطيات، فلا غرابة إذن أن نجد من يرفض الآخر الغربي رفضا قطعيا، دفاعا ومقاومة ضد الاستعمار الذي أحجب وشوّه الوجه المشرق، والجانب الإيجابي للحداثة الغربية. كما كان هذا الرفض وهذه المقاومة كذلك، تمسكا ودفاعا عن ثوابت ومقومات الهوية العربية الإسلامية وبالتالي حمايتها من كل ما من شأنه التأثير سلبا على قيمها وثقافتها وثوابتها. وعلى هذا الأساس يمكن القول بالشرعية التي اكتسبها أولئك الذين رفضوا وأقصوا الآخر كرد فعل على الممارسات والأساليب اللاإنسانية التي انتهجها المستدمر الغربي في الأوطان العربية، "فالدور التخريبي للوجه الآخر للحداثة الغربية هو الذي مكن المقاومة الداخلية لهذه الحداثة في الوطن العربي من الشرعية والمصداقية لأنّها برزت كمقاومة للتدخل الاستعماري والغزو الأجنبي وليس كمقاومة للجديد". (الجابري، 2009، صفحة 20).

وكأنّ الظروف التي عاشها الإنسان العربي وما عاناه من ويلات الاستعمار، كلّها كانت مهيأة لخلق إنسان لم يعد يرى في الآخر الغربي سوى الظلم والاستبداد، وبالتالي لم يعد هناك من لجوء سوى الانطواء على الذات والانغلاق على الآخر. كما لا يجب أن نغفل كذلك عن مشروع آخر أكثر تأثيرا وتفكيكا للروابط والثوابت التي تُشكّل باجتماعها عنوانا للهوية العربية الإسلامية، والذي كان رفضه عند البعض واضحا، باعتبار الدور التخريبي الذي يمارسه ضد كل ما من شأنه تشكيل الهوية والحفاظ عليها. "إنّه نظام العولمة الذي يُعد امتدادا ووريثا للتطبيق الغربي لروح الحداثة في امتداده إلى العالم بأسره والذي أخلّ بمبادئ أخلاقية أساسية واقعا في آفات عملية وتعاملية شنيعة". (طه، 2006، صفحة 77). وما يميّز هذا النظام أنّه عابر للقارات، ولا يعترف بالحدود، كما لا يعترف بخصوصيات وثوابت الشعوب والأمم. فمع هذا النظام يتحطم الخصوصي لصالح العالمي، وتتآكل الحدود بين الأقطار، كما تفقد مفاهيم كبرى دلالتها وقيمتها، مفاهيم من قبيل الدين، الوطن، المبادئ والقيم التي يُضحى بها لصالح من يملك أكبر قوة معلوماتية، ويسيطر على زمام الأمور في كل المجالات. "هكذا تغدو العولمة كما يؤكد أحد الباحثين وهو – حاتم عثمان- نمطا سياسيا اقتصاديا وثقافيا لنموذج غربي متطور، خرج بتجربته عن حدوده لعولمة الآخر بهدف تحقيق أهداف وغايات فرضها التطور المعاصر". (مراد، 2002، الصفحات 68-69).

تجدنا والحالة هذه، أمام مشاريع غربية مبطنة، تتميّز بازدواجية المعايير، كما تتميز بالارتداد على مبادئها متى دعت الحاجة إلى ذلك، وهو الأمر الذي لاحظناه جليا من خلال الإشارة إلى الحداثة الغربية ومسألة حقوق

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

الإنسان وشعارات الحرية والمساواة، التي طُبقت حصرا على المجتمع الغربي، في مقابل المجتمعات العربية الإسلامية التي كانت ملاءمة لتطبيق الوجه الخفي للحداثة الغربية، وهو الوجه الذي أبان عن عمق الأزمة القيمية التي واكبت كل ما هو إيجابي من تقدم وتطور علمي وتقني، وذلك من خلال استعمارها وسلبها حقوقها وكرامتها، ومحاولة ضرب هويتها وأصالتها.

ولا بد من التذكير بأنّ الاستعمار الغربي يبقى نقطة سوداء لن تُمحى في تاريخ الأمة العربية، وقد أثّر وبشكل واضح على سيرورتها وعرقلتها في مواكبة الركب الحضاري العالمي. ومع ذلك يبقى السؤال مطروحا خصوصا في ظل التحديات التي يشهدها المجتمع الإنساني اليوم، وما تفرضه من ضرورة التعامل مع الآخر، فهل الحفاظ على الهوية والأصالة لا يمكن أن يكون إلّا من خلال الانغلاق على الذات كحماية لها من الآخر؟

الهوية والانفتاح على الآخر.

لسنا بحاجة إلى التذكير، بأنّنا نعيش في العالم ونتقاسم الوجود مع الآخر، كما أنّنا نحيا الراهن بكل تحدياته التي فُرضت على المجتمع الإنساني، من خلال ما يشهده العالم من تطورات متسارعة في شتى المجالات العلمية الاقتصادية وحتى الثقافية. ولا بد من الإشارة هنا، أنّه لا مكان للتعصب أو الميل لنبذ الآخر بحجة الدفاع عن الهوية وحمايتها، وإلا أدى ذلك إلى الجمود الفكري وإلى العزلة عن التطور الحضاري. والمقصود هنا، هو التطرف والمغالاة في الرأي، وعدم اعتماد الحوار كأداة لتقبل الآخر وبناء أرضية مشتركة للعيش معا، دون أن يُؤثر ذلك طبعا على أصالتنا وشخصيتنا. والحالة هذه، يجب التغيير من نمط التفكير الذي نتعاطاه بوجهة نظر واحدة، وبرؤية أحادية لا نرى من خلالها إلّا أنفسنا وذواتنا، في مقابل الآخر الذي يجب أن نحذره دائما، فتجدنا دوما نحيا مدافعين عن هويتنا وأصالتنا ومعظم تفكيرنا يكون حول حمايتها. "هكذا يطغى مطلب تأكيد الهوية والذات على تفكيرنا في المستقبل، وتقفز حاجتنا لحماية خصوصيتنا الثقافية إلى الصف الأول وتُصبح هي المتصدرة لقائمة الاهتمامات، في زمن نعتقد أنّنا نغيره بيد أنّه هو الذي يُغيرنا، فنحن لا نستطيع ملاحقته ولا الإسهام في تحولاته ولا حتى التأثير في مساره". (الدواي، 2004، صفحة 34).

إنّ ما يحدث اليوم على جميع المستويات بفعل التطورات العلمية والتكنولوجية، وما يحدث كذلك بفعل السياسات العالمية التي باتت تتحكم في صناعة الحدث، وترسم طرق المستقبل لأمم العالم، لا مجال فيه لأخذ ما يتناسب مع ما يخدم ثوابتنا ويتلاءم مع شخصيتنا، وترك ما لا يلائمنا. كما لا مجال فيه للتفكير بأسلوب الواحد المغلق، الذي لا يرى في الآخر إلا تهديدا لهويته وأصالته، بينما نجد هذا الآخر يُنظّر ويعمل ويُنتج أكثر مما يتكلم. من هنا كان لا بد من إعادة النظر في كيفية التعاطي مع مفهوم الهوية والأصالة، بشكل يجعلنا نُسهم في صناعة الحدث، كما يجعلنا نقبل بفكرة أنّنا لا بد من إثبات وجودنا وكينونتنا في عالم لا

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

يعترف بالثبات، بقدر ما يعترف بالتغير والتجديد، والانفتاح على الآخر. "فالأصالة ليست الانغلاق والتجمد، بل هي بقاء الإنسان هو هو مع الاستفادة من احتكاكه بالغير، ومسايرته الركب الإنساني فيما ينسجم مع عناصر ذاتيته، ويتناغم مع مكونات شخصيته، إذ بتميّزه ذلك فقط يكون عنصرا يقدم مساهمته للفكر الإنساني والحضارة العالمية". (بلقاسم، 2007، صفحة 10).

إنّ الإفراط في التعاطي مع مفهوم الهوية بمنطق الجوهر الثابت الذي لا يتغير سيوصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ لكل شيء ماهية ثابتة تميّزه. لكن هذا التميّز لا يمكن عدّه إنجازا ولا إيجابيا ما لم يتم استثماره في الإسهام بشكل صائب وصحيح في إثراء الحياة الإنسانية بما يجعلنا طرفا أساسيا لا غنى عنه في صناعة وإبداع الحضارة الإنسانية. هكذا تكون شعوب الأسرة البشرية، "فبقدر تمايزها عن بعضها في شخصيتها الثقافية، وفي إبداعها الفني، وفي إنتاجها الزراعي أو الصناعي، يكون ثراء الإنسانية ككل، وتكامل جهودها، والفائدة العائدة عليها في مجموعها من مجموعها". (بلقاسم، 2007، صفحة 11). وبهذا الشكل يغدو الاختلاف والتميّز دافعا حيويا للحياة والإبداع، وإسهاما في تشكيل هوية حيوية، لا ترتكن في وجودها إلى الثابت المطلق والقطعي، الذي يحول بينها وبين ما يحدث في العالم من تغيّرات. إنّ الاختلاف بهذا المعنى ليس نقيضا للهوية، ولا مهدّدا لثوابتها وخصوصيتها، بقدر ما هو شرطا أساسيا لتحققها، باعتبار أنّ انفتاح الذات على الآخر المختلف، سيُثريها ويُعيد تشكيلها باستمرار بما يتوافق ومتطلبات الراهن والمعاصر، الذي لا يعترف في سيرورته بالسكون الذي هو قتل للهوية وقتل للحياة بصورة عامة.

ولتوضيح ذلك أكثر، يمكن الوقوف على عديد الإشكاليات التي انجرت عن هذه القضية التي شغلت متون الفكر العربي المعاصر بحثا ونقاشا، كإشكالية التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة، الهوية والعولمة وغيرها من الإشكاليات التي كانت تُطرح من خلالها النقاشات والجدالات، حول مآلات الهوية العربية الإسلامية، والتحديات التي تواجهها. ولا شك أنّ جل النقاشات التي طُرحت في هذا المجال، وجل ما كُتب وحُرر في متنها، كلّه كان يتعلق بمسألة اختيار بين النموذج الغربي الذي يرى فيه البعض حلا سحريا لكل ما تُجابهه المجتمعات العربية من مشاكل، وذلك باعتباره رائدا للحضارة ونموذجا للعصر، وبين النموذج العربي الإسلامي الذي يتمثل في التراث، حيث الدعوة إلى إعادة إحياءه والارتكاز عليه لمواجهة مشاكل العصر، وتشييد نموذج عربي إسلامي مثلما كان في العصور الذهبية الإسلامية.

ولا بد من الإشارة هنا، أنّ المشكل لا يكمن في تبني أو اختيار نموذج معين، خصوصا وأنّ الأمر يتعلق بقضية محورية وأساسية، ألا وهي إشكالية الهوية. وإنّما المشكل يكمن في التطرف والتعصب في الرأي الذي يجعل كل طرف يرى في نموذجه الذي تبناه، هو الأمثل والأحسن والملائم لمتطلبات العصر، رافضا بذلك لرأي الآخر

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

وللحوار معه. وكمثال على ذلك يمكن الكلام عن "دعاة الأصالة الذين تتوزعهم عدّة اتجاهات: فمنهم السلفيين الرافضين لكل نظم العصر ومؤسساته وفكره وثقافته، باعتباره عصر جاهلية يجب تركه جملة وتفصيلا والعودة إلى النبع الأصيل، إلى إسلام السلف الصالح الذي يتحدد أساسا بعصر الرسول (ص)". (الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، 1990، صفحة 16). ولا شك أنّ الأمر هنا يتعلق أكثر بسؤال القيم الغربية التي لا تتوافق في محتوياتها بأساس القيم الإسلامية، وبالتالي تغدو قيما مزحزحة ومخلخلة للثابت المطلق الذي يُعد الركيزة الأساسية للهوية، ومن هذا المنطلق يغدو التراث العربي الإسلامي بما في ذلك منظومة القيم هو الأساس لدرء آفات الوافد الغربي وسلبياته. وبالمثل نجد كذلك من يؤمن تعصبا بالغرب ولا يعترف بغير ذلك، مؤكدا على ضرورة التحرر نهائيا من متون ومضامين الماضي، الذي لم يعد يواكب المشاريع المعاصرة التي باتت مرجعيات أساسية لكل حضارة. "ومن منظور هؤلاء أنّنا إذا كنا نتطلع حقا أن يكون فكرنا المعاصر فكرا مستقبليا فلا مناص لنا اليوم من الدخول في معركة داخلية مع الذات وتصفية الحساب نهائيا مع تلك الرؤى التي تنظر إلى المستقبل كامتداد للماضي وتفكر فيه وكأنّ مسار التاريخ قد توقف". (الدواي، 2004، صفحة 34).

وتلافيا للسقوط في متاهة التطرف والتعصب لهذين الاتجاهين (التراث العربي الإسلامي في مقابل الوافد الغربي)، وما ينجم عنهما من جدال عقيم تكون غايته نبذ الآخر وصدّه بحجة عدم توافقه مع معتقد وإيمان كل منهما، نجد ذلك الرأي التوفيقي الذي يرى في الأخذ من حضارة الغرب ما يخدم مصالح الأمة العربية الإسلامية، وترك ما يعارضها ويضر بقيمها وثوابتها. لكن ما يبقى موضع تساؤل هنا، هل نحن فعلا في موقع القوي الذي بإمكانه أن يختار بين هذا وذاك؟

من هنا كان لا بد من تغيير طريقة تعاطينا مع مفهوم الهوية، كما يجب كذلك إعادة قراءة تلك العلاقة بيننا وبين الآخر المختلف الذي نتقاسم الوجود معه. إنّ التحديات التي نعيشها اليوم، والتغيرات المتسارعة التي نحياها تحتّم علينا الانخراط في صناعة الحدث بشكل يجعلنا نثبت ذواتنا كطرف أساسي في المعادلة الوجودية التي لا مجال فيها ولا مكان لمن يحيا منعزلا ومتقوقعا على نفسه. بدلا من ذلك إذن لا بد من التفكير جديا وبطريقة عقلانية لا مكان فيها للعاطفة في خلق حداثة غير غربية تجعلنا قادرين على مجابهة ذواتنا أولا من خلال تقبل مضامينها التي تحررنا من فكرة أنّه لا شأن لنا بما هو حداثي باعتباره شأن غربي. هكذا يبقى" الرهان الفلسفي الأكبر في مدى قدرتنا على الفصل بين الغرب بوصفه ادعاء تاريخانيا، والحداثة بما هي مكسب مدني جذري للإنسانية. علينا أن نحترز من أن نكرس ادعاءات تاريخانية تجعل دورنا ملغى سلفا، مثل أن نرفع فكرة الهوية ضد الحداثة فنكرّس ادعاء الغرب بأنّ الحداثة شأن أوربي". (المسكيني، 2001، صفحة

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

70). حينها يمكننا الكلام عن الحداثة باعتبارها شأن إنساني يتشارك فيه الجميع، ويُستفاد من أسسه وإيجابياته الجميع، وإذا ما صح واقتنعنا بذلك، وابتعدنا عن القصور والتبعية، واعتمدنا العقل حينما تتطلب الظروف اعتماده، وابتعدنا عن العاطفة والذاتية في قراءة التراث قراءة موضوعية، كما تكون لنا الجرأة على التفكير واعتماد النقد لتصويب وتعديل أخطاءنا، فإذا ما صح واقتنعنا بكل ذلك إذن، فإن الانفتاح على الآخر سيكون وفق معطيات وشروط تجعلنا ندا له وليس مجرد موضوع يقع على الهامش، كما أنّ الاختلاف وما يتطلبه من قيم الحوار والاعتراف والتسامح اتجاه الآخر، سيكون وفق شروط كذلك تجعلنا في موقع القادر على ممارسة هذه القيم بشكل يجعلنا في موقف الذي يقف الند للند مع الآخر الغربي. وبهذا يمكننا ممارسة هويتنا وأصالتنا بمنطق المنفتح على الآخر المختلف، مواكبين بذلك كل تجديد وتقدم، دون أن نفقد أصالتنا. " وهذا التجديد أو الأخذ بإيجابيات العصر أو المعاصرة السليمة، بحيث يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، ودون أن يصبح نسخة غيره هو ما يُقصد بالأصالة". (بلقاسم، 2007، صفحة 17).

الخاتمة.

يمكن القول في الأخير أنّ إشكالية الهوية والاختلاف، تبقى من بين الإشكاليات الفكرية المعقدة التي واجهتها المجتمعات العربية في الفترة الحديثة والمعاصرة. خصوصا في ظل التحديات التي جابهتها هذه المجتمعات، حيث العلاقة المتوترة مع الحداثة الغربية، وكذا التجربة الاستعمارية التي عاشتها بالإضافة إلى مشروع العولمة الذي فرض نفسه كنظام عالمي جديد يُعيد تشكيل كل الأطر والنظم العالمية بكل أشكالها. من هنا تلك الإشكالية التي وجد المفكر العربي نفسه مجبرا على حلّها أو على الأقل تحليلها وتقديم رؤى تُسهم في فهمها ومعرفة ما الذي يجب أن نكون عليه كعرب ومسلمين اتجاه الآخر المختلف. وهذه الإشكالية ولا شك تتعلق بكيفية الحفاظ على الهوية وحمايتها من جهة، ومن جهة أخرى تتعلق بكيفية التعامل مع مفاهيم الاختلاف والتنوع والتعدد الذي تميّز العالم المعاصر اليوم.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأنّ الهوية ليست معطى ثابتا ولا جوهرا مطلقا وقطعيا، فذلك يحيلها إلى السكون حيث لا تأثير ولا تأثّر، وهو الأمر الذي يجعلها في مقام الرافض للآخر المختلف، وعدم الاعتراف به. بالعكس

إذن، يجب التعاطي مع مفهوم الهوية باعتباره بناء تاريخي يتجدد عبر التفاعل مع الآخر الذي نتقاسم معه العالم والوجود. وعلى هذا يبقى الرهان قائما في خلق وبناء هوية متميّزة ذات خصوصية، تحتكم في وجودها

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

لمعايير وأسس عربية إسلامية، وتقبل بالآخر المختلف وتنفتح عليه، بما يسمح بالمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية.

المراجع:

- بركات محمد مراد. (2002). ظاهرة العولمة، رؤية نقدية. قطر: سلسلة كتاب الأمة.
- عبد الرزاق الدواي. (2004). حوار الفلسفة والعلم والأخلاق في مطالع الألفية الثالثة. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس.
- عبدالرحمن طه. (2006). روح الحداثة، مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- علي حرب. (1998). الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- علي حرب. (2000). نقد الحقيقة. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- علي حرب. (2004). حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- فتحي المسكيني. (2001). الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجية لمسألة (النحن). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- كمال بومنير. (2010). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- محمد سبيلا. (2000). الحداثة وما بعد الحداثة. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- محمد عابد الجابري. (1990). إشكاليات الفكر العربي المعاصر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- محمد عابد الجابري. (2009). المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- مولود قاسم نايت بلقاسم. (2007). إنية وأصالة. الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

للإحالة على هذا المقال:
.الكاتب، (السنة)، «عنوان المقال» . **المواقف**، المجلد: ، العدد: ، الشهر السنة، ص. ص.

حمي نور الدين مطالسي
noureddine.metalsi@univ-mascara.dz

مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
المجلد: 21 العدد: 02 شهر:جوان السنة: 2026
ص ص: من 76 إلى 88
العنوان: الهوية وسؤال الاختلاف في الفكر العربي المعاصر

Al Mawaqif Journal of Studies and Research in Society and History
ISSN: 1112- 7872 E-ISSN: 2600-6162
المؤلف: د. حمي نور الدين مطالسي

حمي نور الدين مطالسي
noureddine.metalsi@univ-mascara.dz